خطاب المدح
في القرآن الكريم

— ١ —

في القرآن الكريم من القيم الروحية والآداب ، والحكم والأمثال والقواعد والأحكام ، والمواعظ والأخبار . ما جعله قبلة أنظار العلماء قاطبة .

فالفقيه ، والنحوي ، والبلاغي ، والقياسوف الأخلاقي ، والمصلح الاجتماعي ، الكل يجد فيه بغيته ، حتى العالم الذي يعنى بالحقائق الموضوعية البحتة يجد فيه ما يدفعه الى البحث ويشجعه عليه .

***

لذلك ترى العلماء قد عنوا به أشد عناية ، وخدموه أجل خدمة فبحثوا فيما حواه من كل نواحيه . بحثوا في أسباب نزول الآيات ، وفي مكان نزولها ، وفيما نزل منها في السفر أو الحضر ، وفي الليل أو النهار ، وفي الصيف أو الشتاء . بحثوا في كل هذا ، وبحثوا فيه من ناحية لفظه عن الغريب ، والمعرّب ، والمشترك ، والمترادف ، والمجاز ، والاستعارة ، والتشبيه . كما بحثوا فيه من ناحية معناه عن المطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والعام والخصوص ، والعام الذي أريد به الخصوص ، وسرد هذا أمر يطول ويخرجنا عن الغرض الذي نهدف اليه .

وتراهم قد بحثوا فيه من ناحية الأداء عن كيفية الوقف والابتداء والامالة والتخفيف . وبحثوا في وجوه خطابه عن خطاب الجنس ، والنوع ، والعين ، وخطاب المدح وهو ما نحن بصدد الكلام فيه . ووجوه الخطاب في القرآن الكريم حصرها ابن الجوزي في خمسة عشر

نوعاً وقال غيره هي أكثر من ثلاثين . وعلى كل فمنها خطاب المدح وهو كل آية وردت مصدرة بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا »

ولقد عنيت بهذا الخطاب في جميع سور القرآن الكريم على أثر كلمة قرأتها لابن مسعود رواها أبو نعيم في « الحلية » والسيوطي في « الاتقان » بسندين مختلفين وها هي ذي :

إذا سمعت الله يقول: « يأيها الذين آمنوا فأوعها سمعك فانه خير يؤمر به ، أو شر ينهى عنه » . وابن مسعود هذا وزير من وزراء النبي صلوات الله عليه ، وعلم من أعلام السابقين المهاجرين المعروفين بالنسك من المعمرين وكان فقيهاً يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وكان يقول اني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة . واذا كان القرآن مأدبة الله كما كان يقول فاني أقدم لقرّاء المقتطف ألواناً من هذا الخطاب خطاب المدح غذاء للعقل والقلب .

إن هذا الخطاب في القرآن الكريم خيرٌ يؤمر به ، أو شرٌّ ينهى عنه ، وهذه المجموعة المجيدة من الأوامر والنواهي خليقة بأن ترفع بني آدم — إذا آمنوا بها حق الايمان — من حضيض البهيمية المظلمة الى سماء الروحانية المنيرة .

وهذه التوجيهات العظيمة التي ترسم القيم الروحية ، وتضرب الأمثال العليا . وتحفظ الآداب السامية ، خوطب بها الذين يؤمنون لأن قوة الشعور في بني الانسان إنما تبنى على التقاليد، وهذه التقاليد لا تتم إلاّ بأمثلة تضرب من جانب المؤمنين ليقتدي بهم عامة الناس لذلك كان على العلماء والقادة : والمصلحين وأرباب الرأي أن يكونوا أولاً وقبل كل شيء مثلاً عليا وإلاّ فأثرهم ضعيف ضئيل ، إن أمكن أن يكون لهم أثر .

***

إن الشرق كان يحمل لواء النهضة يوم كان فيه مثل عليا في العلم والأخلاق والاحسان وتقديس الحق ، فما أحرانا أن نعيد للشرق مجده بضرب الأمثال .

إن سعيد بن المسيب دعي للبيعة للوليد وسليمان بعد عبد الملك بن مروان فقال : لا أبايع أثنين ما اختلف الليل والنهار فقيل له أدخل من الباب واخرج من الباب الآخر قال : والله لا اقتدي في أحد من الناس خالد مائة سوط فلم يحوله هذا الحد عن رأيه .

فاذا أردنا أن نتبوأ مكاننا بين الأمم فبالعلم والعمل ، فويلٌ لمن لا يعلم ، وويلٌ لمن يعلم ولا يعمل . وفي خطاب المدح في القرآن الكريم مادة غزيرة لمن أراد أن يروض نفسه على ذلك .

***

وأول خطاب تقرؤه في القرآن الكريم أنه يعالج ناحية هي في واقع الأمر الأساس الأول في الاجتماع . تلك هي ناحية تخير الألفاظ في الحديث . فلقد نهى عن استعمال الألفاظ الجافة التي تحمل معنىً نازلاً ومدلولاً لا يناسب حال المخاطب .

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعِنا وقولوا انظُرنا واسمعوا وللكافرين عذابٌ أليم »

وكلة راعنا هذه التي كرهها الله في هذا الخطاب مأخوذة من الرعى والرعى حفظ الغير لمصلحة شخصية لا حفظه للصالح العام . وذلك مخلٌ بتعظيمه صلوات الله عليه . وفيه فظاظة وتجهم . وكلة انظرنا التي أمروا أن يقيموها مقام الكلمة الأولى خالياً مدلولها من التدليس التي تحمله الكلمة المنهي عنها إذ معناها ارقبنا نفهم ونتبين ما تقول والنظر إلى الانسان وقت الخطاب أقوى في الافهام والتعليم. وروي في سبب نزول هذا الخطاب أن اليهود كانوا يقولون ذلك للنبي بنية خبيثة ، فقلدهم المسلمون في ذلك فنزلت هذه الآية بالنهي عن الكلمة التي تحمل معنى التدليس الى كلة خالية منه . وهذا تعليم فيه سموّ ورفعة يقوي الروابط الاجتماعية بين أفراد الجمعية الانسانية . أما الكلام الفارغ من المعنى السامي فيوقعنا في العراك والبغضاء . فكم من أسرة قائمة انهارت بسبب كلة نابية . وكم من تخاصم سببته كلة لم يفكر في اختيارها قبل أن تطلق من عقالها . وعبد الله بن مسعود هذا الذي تقدم الكلام عليه كان يقول : « والله الذي لا إله إلاّ هو ما على ظهر الارض شيء أحوج الى طول سجن من لسان » . وجاءه رجل فقال له أوصني يا أبا عبد الرحمن . فقال له : ليسعك بيتك واكفف لسانك ، وابك على ذنوبك . وهذا قليل من كثير ورد في هذا المعنى . وليست في حاجة الى التنبيه على أن المراد سجن اللسان وكفه ، إنما يتعلق بالكلمات الضارة التي لا تنفع ولا تنفع .

وهذه الناحية ناحية تخير ألفاظ الحديث على بها خطاب المدح في موضع آخر . فقال تعالى في سورة الحجرات « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمان ومنْ لمْ يتب فأولئك هم الظالمون »

روى في أسباب نزول هذا الخطاب أن خطيب الأنصار وخطيب النبي صلوات الله عليه ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنيه وقر ، وكان إذا أتى رسول الله أوسعوا له حتى يجلس الى جنبه فيسمع ما يقول فجاء يوماً وقد أخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا . فقال له رجل : أصبت مجلساً فاجلس . فجلس ثابت مغضباً . ثم قال للرجل : يا فلان ابن فلانة يريد أمّاً كان يعير بها في الجاهلية . فنكت الرجل استحياء . هذه حادثة . وروي عن ابن عباس حادثة أخرى . وهي أن صفية بنت حيي زوج النبي أتته يوماً فقالت له : إن النساء يعيرنني ويقلنَ لي يا يهودية بنت يهوديين فقال لها : هلاّ قلت : إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد . فنزل هذا الخطاب الكريم بعد هذه الحادثة مع النساء ، وتلك مع الرجال .

نهى هذا الخطاب عن السخرية فلا يحل لشخص أن يسخر من آخر لفقره . أو لذنب ارتكبه أو لغير ذلك . ونهى عن اللمز ، وهو السب خلف الانسان . وعن التنابز بالألقاب وهو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة .

هذا مثل من الأدب الرفيع الذي جاء به خطاب المدح والذي سار على سننه بعض الناس فسادوا ، فصدق بشره رجاء أن نستحي من أنفسنا ونأنف مما يخالف هذه الآداب . وليس يحتاج الأمر أكثر من تمرين النفس عليها وتدريجها اليها بعزمة من عزمات أولي العقل ، وما أشد حاجتنا الى ذلك ، فانك إذ تسمعت الى الناس في الطرقات والبيوت والأندية لا تكاد تصدق أن هؤلاء يقرأ بينهم كتاب الله صباح مساء أو لا تكاد تصدق أن هؤلاء قد فضلوا بنعمة العقل .

منصور رجب
المدرس بكلية أصول الدين

« يتبع »